

رواية «الفارس الجميل»

بقلم / الدكتور حلمي محمد القاعود*



علي أحمد باكثير

بينها، واستيعابه للدروس الإنسانية الكبرى، التي تحققت نتائجها الطبيعية وفق مقدمات صادقة.

وفي هذا السياق تدخل روايته القصيرة «الفارس الجميل»، التي نشرت عام ١٩٦٥، في مجلة «القصة» المصرية، على مدى ثلاثة أعداد^(٢)، حيث نعيش مع باكثير فصلاً من فصول التاريخ، نقرؤه معه، ونأمل المقدمات والنتائج، ونطالع في الوقت ذاته صورة من صور النفس الإنسانية، وقد تنازعتها مثل البطولة والفروسية والشهامة والوفاء والإخلاص الرفيعة، ونوازع الضعف الإنساني والأخطاء البشرية، وفضلاً عن ذلك نشاهد مرحلة من المراحل التي مرت بها أمتنا، وحفلت بالكثير من المتاعب والمصاعب والصراعات الدامية!

ترك علي أحمد باكثير (١٩١٠ - ١٩٦٩م) تراثاً أدبياً ضخماً من الشعر والنثر، نشر معظمه، وبقي منه جزء ليس قليلاً، يضم مسرحيات وقصائد وقصصاً وروايات. وهذا الجزء مجهول لكثيرين، وبخاصة الأجيال الجديدة، التي لم تعد تعاصر باكثير، أو وُلدت بعد رحيله، ويرجع ذلك إلى أن هذا الجزء مجهول، نُشر متفرقاً في الصحف والمجلات إبان حياة باكثير، أو ظل مجهولاً بين أوراقه التي خلفها، أو قُدم للنشر في مؤسسات رسمية ولم يُكتب له رؤية النور لأمر ما..

باكثير لا ينحاز إلى فريق

ضد فريق .. لكنه يطرح

الأحداث في إطارها الفني

تاريخية مشابهة، وبأجناد قديمة سابقة، كي لا يقعوا فريسة الضياع والاستسلام. ولعل روايات باكثير التاريخية، وبخاصة «وإسلاماه» التي سجل فيها انتصار المسلمين على التتار في «عين جالوت» و«الثائر الأحمر» التي عبر فيها عن هزيمة المشروع القرمطي المعادي للشريعة^(١)، كانت من أبرز إنتاجه الأدبي، الذي يدخل، في دائرة التبشير والتحذير.. التبشير بالانتصار الإسلامي مهما تبلغ ضراوة الهزيمة التي تصيب المسلمين، والتحذير من المشروعات المشتبه بها، التي ترفع رايات مضللة، تكون نتيجتها دائماً الخراب والضياع والبؤس والهزيمة.. وما كان تبشير باكثير وتحذيره إلا نتيجة قراءته الواعية للتاريخ والواقع، ومقارنته المستمرة

ومن هذه الأعمال: قاب قوسين، المحاكمة، مأساة زينب، سفر الخروج الأخير، شلبية، حزام العقبة، حرب البسوس، ثماني عشرة جلدة، وغيرها. ولا يختلف الجزء المجهول كثيراً عن طبيعة الأعمال التي عرفها الناس لباكثير، فهو يحمل خصائص فنه، وملامح رؤيته، ويواكب أحداثاً ومواقف مرت بها الأمة مجتمعة، أو شهدتها متفرقة، مما يعني أن باكثير كان على عهده دائماً، وفيّاً لواقع أمته، ومتأثراً به، ومتفاعلاً معه، ويحاول بقدر طاقته أن يشارك بقلمه في التعبير عن هموم عصره، وطموحات قومه.. وقد نجح دائماً في تحقيق غايته، على الأقل من الوجهة الفنية، فضلاً عن استشرافه للمخاطر والمشكلات، التي كانت وما زالت - تربص بالعقيدة والأمة جميعاً، مما جعله يسبق الكثيرين من أبناء جيله في توقع ما تعانيه الأمة الآن.. لذا كان حريصاً على أن يحث الناس على مواجهة اليأس والإحباط، واقتحام العقبات والمصاعب، وتجاوز المحن والهزائم، مذكراً إياهم بمواقف

(*) أديب وناقد مصري، صدرت له عشرات من الدراسات والأبحاث، يعمل الآن أستاذاً مشاركاً بكلية المعلمين المتوسطة بالرياض، معاراً من جامعة طنطا.

- أليس من نكد

الدنيا يا عبد الملك أن تضطر لمحاربتني
وأضطر لمحاربتك؟

- بلى والله، ولكن الملك عقيم.

- أفلا نهرم بيننا عهداً إلا يقاتل أحدنا
الآخر ما حيناً أبداً؟

- قد علمت يا مصعب أني لست
أقاتلك على شيء، وإنما أقاتل عبد الله
أخاك.

- بل تقاتلني إذ تقاتل أخي.

- اخلع أخاك وأعلن عن نفسك مكانه
فستجدي أكف عنك، وأقاتله معك.

اكتف الكاتب

برسط مهالم الفتنة

ولم يتهورط في

الحديث عن أسبابها

- معاذ الله أن أفعل ما ليس لي بحق.

- أنت أحق والله بهذا الأمر منه.

- ومنك؟

- لا بل تفضلني في أشياء وأفضلك في
أشياء.. ولكننا سنبرم بيننا حينئذ العهد
الذي اقترحت.

- هيهات، إنك لتعلم أن عبد الله بن
الزبير أفضل مني ومنك...»^(٤).

يمضي الحوار على هذا النمط بين
الرجلين الصديقين، كل منهما لا يتنازل
أمام الآخر، ويصرّ على موقفه، حتى انتهت
الأمر كما تروي كتب التاريخ إلى التمكن
لعبد الملك وهزيمة الزبيريين، وتعليق
عبد الله بن الزبير مصلوباً في مكة، بعد
اقتحامها من قبل جيش عبد الملك، الذي
كان يقوده الحجاج بن يوسف الثقفي.

من تراث باكتير المجهول

بنت طلحة بن عبيد الله»، وسكينة بنت
الحسين بن علي، ولكن الرواية في سياقها
تحكي قصة الخصومة بين أبناء الصحابة،
الذين جمعتهم الطفولة والشباب على المودة
والمرحمة والتعاطف، وفرقتهم السياسة
والملك، بالتنافس والقتال والحروب..
وصار الصديق يشهر سيفه في وجه
صديقه، والقريب يشن الحرب ضد قريبه،
مع ما استتبع ذلك من قتلى وجرحى
وأحزان لا حد لها!

الكاتب لا ينحاز إلى فريق دون فريق،
ولكنه يكتفي بطرح الأحداث التاريخية في
إطارها الفني، وكأنه يقول لقومه
المعاصرين: انظروا، ها هي ذي نتيجة
خلافات الأشقاء: دم غريز، وأسى مقيم!
وإذا عرفنا أن باكتير نشر هذه الرواية
القصيرة في فترة حفلت بالمشاحنات
الكلامية، والمعارك الدامية بين بعض
الأقطار العربية، أدركنا جيداً غاية باكتير
من تقديم هذا النص...

إن الكاتب لا يجهر بما يقول، ولكنه
يعرضه بلغة الفن، ومن خلال مواقف
مؤثرة وعميقة. لقد كان عبد الملك بن
مروان يزحف من بلاد الشام ليخضع
العراق الذي يحكمه مصعب بن الزبير، من
قبل أخيه عبد الله بن الزبير، ولأن الرجلين
(عبد الملك ومصعب) كانا يرتبطان منذ
طفولتهما بعلاقة حميمة، وصداقة عميقة،
فقد كره مصعب أن يقاتل صاحبه،
والتمس لذلك العلل والأسباب حتى لا
يتواجه في ميدان المعركة، لأن المنتصر فيها
لا يقل خسارة عن المهزوم. ويحاول
مصعب أن يتجنب الوصول إلى ساحة
الحرب، لدرجة أنه يتخفى ويذهب تحت
جناح الظلام إلى معسكر صاحبه ليقنعه
بالعدول عن الحرب، والتماس مخرج منها،
ولكن الإصرار على المواقف يجعلهما يخفقان
في الوصول إلى حل:

يصدر علي أحمد باكتير روايته القصيرة
«الفارس الجميل» بالآية الكريمة:

«والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان
أحقتنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم
من شيء، كل امرئ بما كسب رهين»^(٣).

وتشير الآية الكريمة إلى الاتباع
الناضج من الخلف للسلف، على أساس
الإيمان الصالح، وثواب المتبعين الكامل
غير المنقوص، وفي الوقت ذاته، فإن
الأعمال منوطة بأصحابها وحدهم، لا يحمل
الآباء عن الأبناء شيئاً ولا العكس، ومن
ثم، فإن الآية الكريمة تجربنا بأن ما يفعله
الأبناء ليس مسؤولية الآباء، الذين رحلوا
ولكنه مسؤولية الأبناء وحدهم.. ولعل
الكاتب أراد أن ندخل الرواية ونحن
مسلحون بهذا الوعي، كي لا يحدث التباس
عند قراءتها، وأيضاً ليوحي بموضوع
الرواية، الذي يمثل بصورة ما تباين الخلف
عن السلف.

لقد تمثل هذا التباين في الصراع بين
الأبناء من أجل الآباء امتداداً لصراع هؤلاء
قبيل رحيلهم، وكل فريق يعتقد أنه على
حق، وأنه على صواب، وكانت ثمرة
الصراع في كل الأحوال مريرة وممضة، حتى
لو بدت أحياناً متوهجة بالبهجة والسرور.

كان الصراع بين ورثة معاوية بن أبي
سفيان ممثلي في عبد الملك بن مروان، وبين
من جاءوا بعد علي بن أبي طالب ممثلي في
عبد الله بن الزبير. وقد تجسّد هذا الصراع
في شخصية بطل الرواية «مصعب بن
الزبير» أو الفارس الجميل، الذي سميت
الرواية باسمه.

ويبدو الموضوع الروائي لأول وهلة
ترجمة لشخصية مصعب بن الزبير، ووصفاً
لجمال خلقته، وتنافس النساء عليه،
واقترانهن به، وبخاصة أنه حظي بالزواج
من أجمل امرأتين في زمانه، وهما: «عائشة

بن الزبير، الذي اهتمت بها الرواية بالفعل، وطرحته من جوانب عديدة، إلى غاية رئيسة، هي تصوير الفتنة بين أبناء الصحابة، وتأثيرها على مصائر العباد، والخسائر التي أحدثتها على مستويات مختلفة.

لقد اكتفى الكاتب برصد معالم الفتنة، ولم يتورط في الحديث عن أسبابها وجذورها.. ولكن هذا لم يمنعه أن يشير أحياناً إشارات دالة إلى تغير النفوس وسيطرة سلطان الدنيا عليها، وتأثير ذلك

المؤلف التزم الأسلوب

الروائي الذي

يتناسب مع التراث

على مسار الأحداث ومواقف الناس. بيد أن الموضوع يبقى في كل الأحوال تحذيراً ضمنياً للأجيال الحاضرة واللاحقة من التناحر والخلافات وتبشيراً لأهوالها ونتائجها.

- ٣ -

تدور أحداث الرواية في أماكن عديدة، أهمها، البصرة والكوفة ومكة المكرمة، والصحراء حيث يعسكر جيش عبد الملك ابن مروان. وتبدو علاقة المكان في الرواية وثيقة بالشخص والحدث، فالبصرة تأخذ بعداً وجدانياً عميقاً في نفس مصعب ابن الزبير، لأنها مقر زوجته سكينه بنت الحسين وعائشة بنت طلحة، أجل نساء العرب، وأقربهن إلى قلبه، وتغدو أحب مدن الأرض إليه بعد أن تأخذ صفة من يحب من البشر. أما الكوفة فهي ميدان

من تراث باكتير المجهول

القتال الذي واجه فيه أعداءه وحاصره، والحجر الأسود، فقد كانت مركز الأحلام والأمان بالنسبة لمصعب وأخويه عروة وعبد الله، وأصدقائهم من أمثال عبد الله ابن عمر وعبد الملك بن مروان.. وقد تحققت أمان الجَميع وأحلامهم، بيد أن مكة تبقى أيضاً مكاناً للنهائيات الفاجعة حيث قتل عبد الله بن الزبير، وقبل ذلك رمزاً للمحاسبة والمعاينة والمعاناة بالنسبة لمصعب، ففيها يجد جفأً من أخيه عبد الله، وصداً له ولأصحابه القادمين من العراق، وضئاً عليهم بالعتاء، مما جعل مصعباً في موقف صعب أمامهم، وترك أثراً في نفوسهم، كان له دوره في تحويل مسار الأحداث والقتال، ثم إن مصعباً وجد في مكة لوماً دائماً وتأنياً قاسيين من عبد الله بن عمر، الذي لاهه وأنبه على مقتل ثلاثة آلاف رجل من أتباع المختار الثقفي، قتلهم أصحاب مصعب مع أنهم عرضوا التوبة. لقد كانت مكة بالنسبة لمصعب مثاراً للشجن والألم والإحباط، وكانت مقولة عبد الله بن عمر لمصعب:

«يا ابن أخي أصب من الماء البارد ما استطعت في دنياك»^(٥).

ذات أثر في نفسه لم تحم الأيام. وظل يذكرها بقية حياته، وكان كلما فكر في معناها اقشعر بدنه، وتقطع قلبه ندماً وخشية.

دون توقيت:

ولم يتوقف باكتير عند هذه الأماكن بالوصف والتشخيص إلا لماماً، ولم يقدم ما يشير إلى طبيعة المجتمع فيها تقدماً وإفياً، وإن كانت إشارات أو وقفات توحى بدلالات لها أهميتها بصورة ما، فالبصرة مثلاً مدينة وادعة، ذات زرع ونخيل، وشط تتمايل فيه السفن والقوارب غادية ورائحة، وتتيح لمصعب أن يتمتع فيها

بمباهج الحياة^(٦). مما يجعلها تبدو رمزاً للمجتمع المترف الهادئ، الذي يغص بالشعر والغناء، والغنى والحياة الرخية، كما توحى الإشارات المتفرقة في ثنايا الرواية.

ويبدو الزمن الروائي في النص غير محدد بسنة معينة أو توقيت معين، ولكن الكاتب اكتفى بالأحداث التي تشير إلى فترة زمنية تصارع فيها الأمويون (آل مروان تحديداً) مع الزبيريين (آل الزبير)، حيث تبدأ الوقائع الروائية منذ حصار المختار الثقفي في الكوفة، إلى لقاء مصعب بن الزبير بعبد الملك بن مروان في معسكره بالصحراء، فيما بين الشام والعراق.. أي إن الرواية القصيرة تأخذ حيزاً زمنياً محدوداً من صراع المروانيين والزبيريين، ولعل الكاتب أراد من ناحية ما أن يركز على دور عائشة بنت طلحة وسكينه بنت الحسين، فقد أعطى لهما حضوراً روائياً بارزاً، وهو ما جعله يكتفي بالحيز الزمني المحدود الذي يتناول علاقة الزوجتين برجلهما، وتطفو على سطحه ملامح الصراع السياسي.

وعلى كل فإن الزمن الروائي في «الفارس الجميل» يسير مستقيماً متصاعداً، ولكنه يتعرج أحياناً أو يتراجع بالمونولوج الداخلي أو الاسترجاع والتذكر فيما نراه عبر السرد متعلقاً بشخصية مصعب، حيث يضيء جوانب منها، أو يكشف معالم بعض الأحداث أو يفسرها.

- ٤ -

يبنى باكتير روايته القصيرة من خلال الحيرة التي تسيطر على مصعب بن الزبير إزاء زوجته الجميلتين، وهما من أشهر نساء العرب. وتبدو الحيرة في كيفية تفضيل إحداها على الأخرى، وكيفية إرضائها وهما لا ترضيان، لأنها متنافستان، وفي الوقت

يكبره أن يواجه

صديقه الحميم الذي

عاش معه أيام الصبا

والشباب، كأجل ما يكون العيش في تلك الفترة الزاهية.. لذا فإن الأحداث لا تنجح إلى الهدوء أو الإبطاء، ولكنها تظل في تصاعد كي تقدم لنا لقاءً مثيراً بين الصديقين اللدودين (عبد الملك ومصعب)، كل منهما لا يريد قتال الآخر، ولكنه لا يستطيع أن يمنع القتال! إنه صراع العاطفة والواجب يتمثل في اللقاء المثير الذي سعى إليه مصعب من أجل حقن الدماء وعدم المواجهة، ولكن الكاتب يتركنا عند هذا اللقاء المثير الذي لم يتمخض عن اتفاق، وإن كان قد حل الكثير من المشاعر والأحاسيس والصراع النفسي، الذي يضطرم بين جوانح الرجلين الفارسين.

لقد ترك الكاتب نهاية روايته القصيرة مفتوحة، ولم يستطرد إلى بقية الأحداث التي حملتها كتب التاريخ، وكأنه أراد أن يوفر علينا رؤية مشاهد الحزن والدم، واقتال الأبناء الأصدقاء، الذين صيرتهم الدنيا «أخوة أعداء»!

وما بين البداية التي تبدو إنذاراً بالعواصف والشجن (تدلل الزوجتين وحيرة مصعب بينهما، وسعي كل منهما للتفوق على الأخرى وهزيمتها)، والنهائية التي تشير إلى أنهار الدم والأسى، تختزل الرواية القصيرة مشهداً تاريخياً له دلالاته وآثاره، التي يشهد الواقع العربي بل الإسلامي، نظيراً معاصراً لها، وإن اختلفت المواقع والشخصيات والأحداث والأساليب.

- ٥ -

الشخصية الأساس في «الفارس الجميل» - كما رأينا - هي شخصية مصعب بن الزبير وهو أخ غير شقيق لعبد الله بن الزبير بن العوام. وقد ولّاه عبد الله، حين طالب بالخلافة بعد مصرع الحسين بن علي رضي الله عنهما إمارة الكوفة، وعهد إليه بإخضاع الشائرين

- بلى.

- أفتراه إسرافاً في البهائم ولا تراه إسرافاً فيمن ترجو توبتهم؟^(٧).

وليت الأمر وقف عند هذا الحد، بل تعدّاه في تصاعد دموي بشع، عندما أقدم أصحاب مصعب على قتل إحدى زوجتي المختار (عمرة بنت النعمان بن بشير)، مع أنه كان رافضاً لقتلها، وكان لهذه الحادثة أثرها في نفس مصعب، وقد سارت بذكرها الركبان، وبخاصة بعد أن أنشد فيها عمر ابن أبي ربيعة أبياته:

إن من أكبر الكيائير عندي
قتل حسناء حرة عطبول

هذا العمل يؤكد انتفاء باكتير إلى قضايا أمتهم وتعبير عنها

فُتِلْتُ باطلاً على غير ذنب
إن لله درهما من قتيل
كتب القتل والقتال علينا
وعلى الغانيات جرّ الديول..
ثم إن صدام الرأي والفكر بين مصعب وأخيه عبد الله بالحجاز، وموقف الأخير من أصحابه القادمين من العراق، وعزل مصعب وتولية حمزة ابن أخيه عبد الله ابن الزبير مكانه، أضافت إلى البناء الروائي حالة من الفوران الدائم الذي جعل الأحداث تتجه إلى نقطة الذروة الساخنة.. ولم تخمد هذه الحالة بعزل حمزة وإعادة مصعب إلى الولاية، لأن عبد الله ابن الزبير كان يطلب من أخيه التجهيز لقتال عبد الملك بن مروان والاستعداد لملاقاته، وهو الأمر الذي أثار صراعاً نفسياً متلاطماً في وجدان مصعب، حيث كان

ذاته فإن مصعباً يعدّ من أجل رجال العرب، وتتهافت عليه النساء، لدرجة أن جميل بثينة حين رآه وهو يؤدي مناسك الحج، عرفه وودّ من الله أن يرزقه وجهاً مثل وجهه، وحين سأله مصعب: لماذا؟ قال له: أفتن به قلب بثينة وأشغفه حباً. وضحك مصعب حتى بدت نواجذه، ثم قال: إنك تحسدني على وجهي وأنا أحسدك على شعرك!! بل إن جميلاً خشي على بثينة أن ترى مصعباً حين عرض عليه أن يتشفع له عندها. وقال له: ضلّ من جعلك شفيعه إلى امرأته.

إن تنافس عائشة وسكينة على حب مصعب. وهجرهما له في الوقت ذاته، وتدلّلهما عليه، يشكل مدخلاً جيداً للرواية، يهيء بعدئذ لتتابع الأحداث التي تشدّ القارئ للمتابعة، بما تحمله من مفاجآت مسببة وأحداث طبيعية. إن حصار الزوجتين الجميلتين لزوجهما مصعب، يقابله حصار مصعب للمختار الثقفي وأصحابه، وهو حصار ينتهي بخديعة من المختار، كما انتهى حصار الزوجتين بحيلة من حيل مصعب، ثم تقفز الأحداث في اتجاه التصعيد بمقتل المختار، وتزداد ضراوة التصعيد بقتل ثلاثة آلاف رجل من أتباع المختار، أعلنوا التوبة وأرادوا النجاة، ولكن أصحاب مصعب ما تركوا لهم فرصة وأعملوا فيهم السيف، وكان هذا الحدث نقطة تحول مؤثرة في نفس مصعب، ظلت تطارده وتفسد عليه لحظات هدوئه وصفوه، وبخاصة بعد أن لامه عبد الله بن عمر، وقرّعه على هذه الجريمة التي ارتكبتها أصحابه. صحيح أنه لم يكن موافقاً على المقتلة، ولكنه كان يستطيع أن يمنحها، وكان حواراً مع عبد الله بن عمر، كاشفاً لأبعاد هذه المأساة وبخاصة حين قال له عبد الله:

- «ويحك، أخبرني يا مصعب لو أن رجلاً أتى ماشية الزبير فذبح منها ثلاثة آلاف رأس في غداة واحدة، ألسنت تعدّه مسرفاً؟

من تراث باكثير المجهول

والخارجين على
سلطانته، وقد أبلى
مصعب بلاء حسناً، فقد
كان فارساً لا يشق له غبار، وتعد شخصية
مصعب من الشخصيات الفنية المتكاملة،
التي رسمها الكاتب بعناية، واهتم بتنميتها
من الداخل، وتقديمتها شخصية حية،
تعيش لحظات القوة والضعف، ونشوة
النصر وتعاسة الهزيمة.. إنه يقدم مصعباً
الفارس المنتصر في معاركه الحربية، ويقدمه
- أيضاً - المنهزم أما نسائه أو زوجاته،
ويقدمه مقاتلاً بارعاً يضغط على خصومه
حتى يرغمهم على الاستسلام وفي الوقت
ذاته يصوره سياسياً متردداً، يضعف أمام
أنصاره، مما يوقعه في أخطاء قاتلة، ويقدمه
إنساناً شهماً مؤمناً بالأخلاق العليا والقيم
الرفيعة، ومع ذلك يبدو بسبب هذه القيم
وتلك الأخلاق، قائداً غير محنك، يفتقد
البعد الاستراتيجي بلغة عصرنا.. ثم إن
الكاتب في كل الأحوال، كان يكشف لنا
مصعباً من الداخل، ويطلعنا على ما يفكر
فيه، وعلى ما يؤرقه من مشكلات
ومعضلات.. فأرانا «صورة حية نامية، وإن
لم نعش معها إلا فترة قصيرة نسبياً، هي
الفترة الممتدة من هزيمة المختار الثقفي إلى
ما قبل الاشتباك بين جيش عبد الملك
وجيش مصعب.

وإذا كان الكاتب لم يكتف بتقديم
الفارس الجميل مصعب بن الزبير من
الخارج، ثم تعمق شخصيته إلى حد كبير،
فإنه فعل العكس تقريباً مع بقية
الشخصيات التي ضمها الرواية، ويمكننا
أن نستثني بعض الشخصيات التي حظيت
ببعض اهتمامه الفني، مثل زوجته عائشة
بنت طلحة وسكينة بنت الحسين، الأولى
مشغولة بجهاها ودلالها، وتأثيرها على زوجها
الجميل، والثانية مليحة العرب، أو أملح
نساء العرب، يشغلها ثأر أبيها من قاتليه،

ومنافسة ضررتها عائشة بنت طلحة، فضلاً
عن اهتمامها بالأدب شعراً ونثراً، وقد كان
الكاتب وفيماً لما أورده كتب التاريخ
والأدب عن هاتين المرأتين، وصفاً وسلوكاً
ولغة، وبالطبع فإنه لم ينقل ما كتب حولها
جميعه، بل اختار بعضه مما يتفق مع بنائه
الروائي دون أن يتدخل فيه، بل حافظ على
صورته التاريخية التراثية كما وردت^(٨).

بيد أنه تبقى هنالك شخصيات أخرى
كثيرة، جاءت جاهزة، وإن كان بعضها
يعطينا شيئاً من ملامحه الخلقية والسلوكية
من خلال الحوار، مثل شخصية عبد الله
ابن عمر رضي الله عنهما، والأخنف بن
قيس، وعبد الملك بن مروان، وجميل بن
معمر (جميل بثينة).

-٦-

يملك «علي أحمد باكثير» أسلوباً أدبياً
رصيناً، يتناسب مع التراث والتاريخ،
ويمكن القول إنه التزم بالرصانة المستقاة
من لغة التراث ذاتها، حين وصف
الأشخاص والأماكن، وحين أجرى حواراً،
بل حين جعل بعض شخصوه يتذكرون
ماضيهم، فيما يعرف بالاسترجاع (الفلاش
باك)، أو يحاورون أنفسهم فيما يعرف
(بالمونولوج الداخلي)، أو يمزجون بين
الاسترجاع والحوار الداخلي.

وعلى كل حال، فهذه الرصانة تملك
قدرة على الانسياب التعبيري بعيداً عن
التكلف والتنطع، مما يضفي ظلالاً جمالية
ملموسة على التركيب والسياق في آن واحد.
إنه مثلاً يصف «جثة سكينة» التي
اشتهرت بها، فلا يكتفي بوصفها من الخارج،
وإنما يكشف تأثيرها على مصعب وعليها.
«صديقني يا سكين.. لهذه الجملة
وحدها عندي بألف عائشة! وتهلل وجه
سكينة عند ذكر الجملة التي اشتهرت بها،
فأخذت بسمة صغيرة تنداح حول شفيتها،
ما شجع مصعباً على الاسترسال في

الحديث، ففطفت يقص عليها كيف أرادت
عائشة ذات يوم أن تقلدها في جبتها فلم
تفلح، فأخذت تسبها وتقول: وددت لو
تقص جثة سكينة، وأعتق جميع إمائي»^(٩).

وعندما يصف الأماكن، أو بعض معالم
الحياة الاجتماعية، فإن باكثير يعطي دلالات
تتجاوز مجرد وصف ما هو كائن لتعبر عن
طبيعة العلاقات الإنسانية والحضارية، التي
تسود المكان والزمان أيضاً، ولتأمل مثلاً
وصفه لحالة الترف التي يعيشها مصعب في
بيت زوجه عائشة بنت طلحة، حيث
يصف مجلسي النساء والرجال؟

«وددت هي طائفة مختارة من نسوة
قريش، فلما حضرن خلعت على كل واحدة
منهن خلة تامة من الوشي والخز، وأجلستهن
في مجلس قد نسقت فيه الرياحين والأزهار،
وصفت على موائده أطباق الفواكه، وعبقت
فيه مجامر العود والنّد.

وكذلك فعلت في مجلس الرجال الذي
يحاذيه، والذي تفصل بينه وبين مجلس
النساء الستور والحجب. وقد دعا مصعب
جماعة من أصدقائه وأصفائه فجلسوا معه
في أنس وصفاء. وتذاكروا معه مختلف
شؤون الدولة وشؤون الناس، والساقى يدور
عليهم بأكواب الأشرية من ورد ورمّان
وتفاح، ثم مد الخوان بالشواء وألوان
الأطعمة فأكلوا هنيئاً مريئاً..»^(١٠).

وهكذا يبدو الوصف إطاراً تتحقق من
خلاله صياغة جمالية رصينة، تحقق انسياباً
تعبيرياً سلساً، ومع أن الرواية جاءت من
خلال ضمير الغائب، معتمدة على السرد
الذي يجعل للمؤلف حضوراً ملحوظاً في
العادة إلا أن القارئ لم يشعر بهذا الحضور،
وذلك لأنه تغلب على الرتبة السردية بأكثر
من وسيلة، منها الوصف الحي - كما تقدم
- ومنها المونولوج الداخلي أو الحوار
الداخلي المتمزج بالاسترجاع أو التذكّر،
حيث يبدو عنصراً فعالاً على امتداد الرواية،

من تراث باكتير المجهول

لعمر بن أبي ربيعة
بعد مقتل زوجة
المختار (عمرة بنت
النعمان بن بشير).

إن باكتير يوظف مختلف العناصر
الروائية، ليقدم سياقاً سردياً، يحقق المتعة
الجمالية من ناحية، ويحقق البناء الروائي
المحكم من ناحية أخرى.

وبعد..

فإن علي أحمد باكتير في روايته القصيرة
(الفارس الجميل) يؤكد على أصالته الفكرية
والأدبية، وحرصه على الانتهاء لتصوير أمته
وقيمها، واجتهاده المستمر في معالجة الواقع
واستشراف المستقبل، مستفيداً بدروس
الماضي وحكمة التاريخ.

الهوامش

(١) انظر كتاب «الرواية التاريخية في أدبنا الحديث -
دراسة تطبيقية، دار الاعتصام، القاهرة، ١٤١٠هـ -
١٩٩٠م، فقد أفردت فيه فصلاً طويلاً لدراسة الرواية
التاريخية عند باكتير، وركزت على رواية «الثائر الأحمر»
مثالاً لها.

(٢) مجلة القصة المصرية، كانت تصدر شهرية في أواسط
الستينات. وقد نشرت رواية باكتير في الأعداد ١٤،
١٥، ١٦ (السنة الثانية، فبراير - مارس - إبريل
١٩٦٥).

(٣) سورة الطور: ٢١.

(٤) الفارس الجميل، مجلة القصة، عدد ١٦، إبريل
١٩٦٥، ص ١٧.

(٥) مجلة القصة، عدد ١٥، مارس ١٩٦٥، ص ١٦.

(٦) السابق، عدد ١٥، مارس ١٩٦٥، ص ٢١.

(٧) السابق، ص ١٦.

(٨) راجع مثلاً ما كتبه علي الجندي، في بحثه القيم «ملكنا
الجمال العربي في صدر الإسلام»، صحيفة دار العلوم،
القاهرة، العدد الثالث (فبراير ١٩٣٧م ذو القعدة
١٣٥٥هـ - والعدد الثاني (شعبان ١٣٥٦هـ -
أكتوبر ١٩٣٧م).

(٩) مجلة القصة، عدد ١٤، فبراير ١٩٦٥، ص ١٠.

(١٠) السابق، ص ١٦.

(١١) السابق، عدد ١٥، ص ١٩.

(١٢) السابق، عدد ١٤، ص ١٣.

الموروث، الذي روته كتب التاريخ والأدب.
ومهمة الحوار كشفية وتفسيرية، وأيضاً فإنها
تسعى إلى تطوير الأحداث وتنامي البناء.
وفي الحوار التالي بين مصعب والمختار
الثقفي ما يكشف عن طبيعة الرجلين،
ويفسر نظرتهم إلى ما يجري، ويمهد لنهاية
المختار.
«... قال المختار:

- إن أصحابك لا يعرفون مروءتك يا
مصعب ولا يقدرونك حق قدرك.

قال مصعب:

- بلى، ولكنهم حرصاء على فلا لوم
عليهم، فقل لي ماذا تريد؟

- جئت أعرض عليك أحد أمرين،
الأول أن تتركني وأصحابي فنمضي جهة
الشام، لنقاتل أعداءكم آل مروان.

- كلا يا ابن أبي عبيد، ما يكون لي أن
أحاصرك أربعة أشهر، حتى إذا نفدت
المؤونة من عندك أطلق سراحك لتمضي
حيث تشاء.

- أعاهدك لأقاتل آل مروان فأشغلهم
عنك.

- ليس بيني وبين آل مروان شيء حتى
اليوم، ولئن قاتلتهم فلن أستعين عليهم
بعدوي.

- إذن فإني أعرض عليك الأمر الثاني..

- ما هو؟

- أن تبارزني بالسيف فإما قتلتي
وإما قتلتك. ففقهه مصعب ضاحكاً
«... الخ»^(١٢).

وهكذا نجد الحوار يؤدي وظيفة مهمة
في الكشف والتفسير والتمهيد، سواء فيما
يتعلق بمصعب أو بالمختار أو بالحدث
الروائي بصفة عامة.

وبالإضافة إلى دور الحوار المهم في البناء
الروائي بصفة عامة، والسرد بصفة خاصة،
فإن باكتير يستفيد بالشعر، بوصفه، وسيلة
من الوسائل الفنية، تعليقاً على الأحداث،
أو تأكيداً لأهميتها، وسبق أن رأينا نموذجاً

يقدم لنا شخصية مصعب من الداخل،
ويضفي عليها حيوية ملحوظة، وفي الوقت
نفسه يكشف لنا عن أحداث مضت، وآمال
تتخلق في ذهن الشخصية، ويُنْتَظَر تحقيقها في
المستقبل، لنقرأ مثلاً هذه الفقرة التي تحكي
خيبة أمل مصعب بعد عودته من زيارة أخيه
عبدالله من مكة، حيث تغيرت أحواله
النفسية، مزاجاً وسلوكاً ونظرة إلى الحياة:

«وأخذت الهموم تساور قلبه، فتكدر
عليه يومه، وتؤرق ليله أحياناً، وتضطره
للتفكير في المستقبل، فيجده كالحال لا يبشر
وجهه بخير، ولا يفتر ثغره عن أمل، أين تلك
الثقة التي كانت تفيض بها نفسه؟ وأين تلك
الآمال التي كان يجيش بها صدره؟ لقد قضى
على كل ذلك به أخوه عبدالله حين قدم عليه
في عاصمة ملكه.

لقد كان يعلم أن أخاه مقبوض اليد،
ولكنه لم يخطر بباله قط وهو قادم عليه بعد
ذلك النصر الكبير الذي أحرزه على عدوه
اللدود المختار بن أبي عبيد، أن تبلغ بأخيه
كزازة اليد بحيث يمنع عطائه عن تلك
النخبة المختارة من وفد العراق، الذين قدم
بهم عليه، مزهواً بهم، مؤملاً أن يلقوا من
أخيه أمير المؤمنين ما يكافئ بعض ما قدموا
من نصره له، وبعض ما أظهرها من إخلاص
في سبيله، حتى يبيض وجهه هو أمامهم،
فيستطيع في المستقبل أن يثق باستمرار
ولاثمهم له، وعدم انصراف قلوبهم عنه إلى
أعدائه...»^(١١).

ويظل السرد على هذا النمط كاشفاً ما
يفكر فيه مصعب، وما جرى له من أحداث،
حتى ينتقل إلى مواقف قصصية جديدة، مهد
لها السرد تمهيداً منطقياً وتلقائياً.

بيد أن الحوار يؤدي هو الآخر دوراً مهماً
وعميقاً - إن لم يكن أهم وأعمق - في إضفاء
الحيوية على السياق السردى والبناء الروائي
بصفة عامة. والكاتب يجري الحوار بين
معظم الشخصيات في كثير من المواقف
القصصية، ملتزماً في الغالب بالنص